أنات حائرة

للمحرر الشاعر عزيز أباظة بك

للأستاذ محمد عبد الغني حسن

خطر لي موضوع هذا المقال وأنا أقرأ ديواناً من الشعر الحزين الرصين أهداه إليّ الشاعر عزيز بك أباظة

وكثير من الناس لا يعرفون شيئاً عن قصة هذا الشاعر، ولا قصة ديوانه الجديد الذي أتحف به باب المراثي في الشعر العربي

أما الشاعر فقد سمعت عنه من بعض أفراد أسرته الكريمة

قلت في نفسي: قريب يحابي قريباً، ونسيب يزكّي نسيباً؛ ولكنني لما قرأت ديوانه استصغرت ما سمعت من الأخبار

وأما قصة الديوان، فهي قصة الدموع والأحزان والهموم والآلام نظمها الشاعر في سلك وأهداها إلى من يجدون في دموع غيرهم شفاء لغليلهم، وراحة لصدورهم

والديوان كله دموع ذرفها الشاعر على زوجته التي اختطفها الموت أنضر ما تكون شباباً. وكل بيت من الديوان يحمل ذكرى. وكل قصيدة تحمل أثراً

وهذا شيء جديد في الأدب العربي؛ فما رأينا قبل اليوم — فيما نعلم — شاعراً عربياً اختص زوجته بديوان كامل من شعره يقدمه تذكاراً لأيام سعيدة وبشاشات من العيش مضت إلى غير رجعة

وأكثر المراثي في الأدب العربي هي من الرجال إلى الرجال؛ اللهم إلا مراثي الخنساء لأخويها صخر ومعاوية وأولادها الأربعة. فهي هنا الشاعرة الوحيدة التي تفردت بالبكاء حياتها.

ورثاء الرجال للنساء في الشعر العربي قليل، وأقل منه رثاء الرجال لزوجاتهم. ولعل ذلك محمول على المحافظة على صيانة المرأة وبُعدها أن يكون اسمها مضغة في الأفواه، وسيرة على الألسنة.

وليس في ذلك مناقضة لورود المرأة في شعر الغزل؛ فإن المرأة موضوع الغزل ليست محرّماً للرجل وليست من أهله، ولا يعيب الرجل أن يتحدث الناس عنها. أما الزوجة المرثية، فهي لزوجها أهل وأمّ أبناء، فيجد من الحرج أن يذكرها في شعره حتى ولو كان ذلك في مقام الرثاء وموضع البكاء. ودليلنا على ذلك أن الطغرائي أنِفَ أن يذكر زوجته في معرض رثائها فعبّر عنها أكثر من مرة بقوله «ستيرته»[1] والستيرة هي المرأة المستورة. وهذا الوصف يوحي بأن الشاعر قصد أن يجعل زوجته في ستر حتى على صفحات ديوانه المنشور

واشتهر من الأزواج الراثين لزوجاتهم مسلم بن الوليد[2].

ويظهر أنه كان ينوي أن يعرض عن رثاء زوجته — على عادة الشعراء قبله — ولكن حادثاً معيناً أغراه برثائها وهاج أحزانه فسجلها في أبيات رائعة. ويلخص هذا الحادث[3] في أن أصحابه لاحظوا عليه بعد دفنها شدة ألمه واستسلامه لأحزانه، فأرادوا أن يحملوه على الشراب حتى يتسلى بالخمر عن مصابها فرد عليهم بقوله:

بكاء وكأس كيف يتفقان ... سبيلاهما في القلب مختلفان
دعاني وإفراط البكاء فأنني ... أرى اليوم فيه غير ما تريان
غدت والثرى أولى بها من وليها ... إلى منزل ناء بعينك دان
فلا حزن حتى تنزف العين ماءها ... وتعترف الأحشاء بالخفقان
وكيف بدفع اليأس والوجد بعدها
وسهماها في القلب يعتلجان

ولابن الزيات الكاتب الشاعر وزير المعتصم والواثق العباسيين أبيات يرثي بها زوجته ويصور حال ولده منها وقد تركته طفلاً صغيراً، يقول فيها:[4]

ألا من رأى الطفل المفارق أمه ... يُعيد الكرى عيناه تتسكبان

---

(١) ديوان الطغرائي، ومختارات البارودي

(٢) ديوان مسلم بن الوليد ومختارات البارودي

(٣) كتاب الأدب التوجيهي، ومختارات البارودي ص ٢٩٦ ج ١

(٤) مختارات البارودي

الأركان شديد البنيان، وكل إصلاح يقوم على غير هذا الأساس فإنما يكون مصيره ولا ريب الإخفاق والخيبة

وإنا نرسل اليوم هذه الصيحة من فوق منبر الرسالة لكي تبلغ المسئولين في بلاد الشرق كافة، فينهضوا جميعاً في حزم وقوة، وفي غير هوادة ولا لين، ليضعوا هذا الأساس بأيديهم ثم يقيموا عليه بعد ذلك ما يقيمون من إصلاح وما يبنون من أعمال

هذه هي صيحتي التي أبعثها إلى قومي. وأرجو أن أكون قد بلغت، وأن أكون قد ذكرتهم بما فيه الخير لهم، والذكرى تنفع المؤمنين

(المنصورة) محمود أبو ريّة

رأى كل أم وابنها غير أمه يبيتان تحت الليل ينتجيان
وبات وحيداً في الفراش تجنّبه بلابل قلب دائم الخفقان
فلا تلحياني إن بكيت فإنما أداوي بهذا الدمع ما تريانى

ومن الشعراء من يتخذ له جارية أو أكثر وفق ما كان مألوفاً في زمانهم وجارياً عليه عهدهم ؛ فإذا ماتت جارية من هؤلاء وكانت عزيزة على الشاعر حبيبة إلى نفسه رثاها كما ترثى الزوجة ، وقد يذرف عليها من ساخن عبراته ما يعبر عنه شعره . كما فعل أبو تمام في رثاء جارية له[1] يقول فيها:

أصبت بخود سوف أغبر بعدها حليف أسى أبكي زمانا زمانها
عنان من اللذات قد كان في يدى
فلما قضى الألف استردت عنانها
منحت الدُّمى هجرى فلا محسناتها
أود ولا يهوى فؤادى حسانها
يقولون هل يبكي الفتى لحريدة إذا ما أراد اعتاض عشراً مكانها
وهل يستعيض المرء من عشر كفه
ولو صاغ من حر اللجين بنانها ؟

وأبو تمام هنا يؤمن بالفردية وعدم القابلية للتعويض ، فقد يكون من الجوارى من يزدن حسناً على جاريته المرثية ، ولكنه لا يجد فيهن العوض منها لخصائص فيها ليست لواحدة منهن

والشريف الرضى يرثى (بعض أهله) بأبيات فيها أثر اللوعة والحزن الشديد ؛ ولعل بعض أهله زوجة له ، لأن العرب تعبر عن زوجة الرجل بأهله . قال الشريف :

ذكرتك ذكرة لا ذاهل ولا نازع قلبه والجنان
أعاود منك عداد السليم فيادين قلبي ماذا يدان
ونابي الجوى أن أسر الجوى إذا ملئ القلب فاض اللسان
وما خير عين خبا نورها ويمنى يد جذ منها البنان
فيا أثر الحب إني بقيت وقد بان ممن أحب العيان
وقالوا تسل بأترابها فأين الشباب وأين الزمان ؟

والشريف صادق في البيت الأخير ؛ فأين الشباب المسعف على اصطناع الحب من جديد ؟ وأين الزمان المعين على ذلك بعد أن ضاع من العمر غير قليل ؟

وأكثر الشعراء رثاء لزوجته في الأدب العربي « الطغرائي » فله أكثر من خمس قصائد مختلفات في الوزن والقافية . وكلها تدل على شديد حرقته . ولعله بذلك مهد السبيل لمحمود سامي البارودي باشا الذي رثى زوجته بقصيدة تعد أطول ما رثيت به امرأة في الأدب . فقد بلغت أبياتها سبعة وستين بيتاً[1]

وقصيدة البارودي هذه لا تمتاز من مراثي النساء بطولها فحسب ، بل تمتاز بتعبيرها عن أحزان البارودي ونفسه المحطمة أصدق تعبير ، فقد كان منفياً بجزيرة سرنديب يوم ورد إليه نعيها . ولكنه على عزيمته القوية لم يستطع احتمال الصدمة فيها فيقول :

أيد المنون قدحت أي زناد وأطرت أية شعلة بفؤادى
أوهنت عزمي وهو حملة فيلق وحطمت عودي وهو رمح طراد

ويقول :

يا دهر فيم فجعتني بجليلة كانت خلاصة عدتي وعتادى
إن كنت لم ترحم ضناي لبعدها أفلا رحمت من الأسى أولادى

ولكنه بعد أن يذيب قلبه حسرات عليها يعود فيرضى بقضاء الله الذي لا مرد منه ولا محيص عنه فيقول :

كل امرئ يوماً ملاق ربه والناس في الدنيا على ميعاد

أما الطغرائي فكان على إكثاره من القصائد غير مرتفع إلى مستوى البارودي في مرثيته الخالدة . وإذا كان الطغرائي هو شاعر الشكوى من الزمان ، فلم يستطع أن يكون بحق شاعر الرثاء . وأحسن أبياته في رثاء زوجته قوله :[2]

إن ساغ بعدك لي ماء على ظمأ فلا تجرعت غير الصاب والصبر
وإن نظرتُ من الدنيا إلى حسن مذ غبت عني فلا متعتُ بالنظر
صحبتني والشباب الغض ثم مضى كما مضيت فما في العيش من وطر
سبقتماني ولو خيرت بعدكما لكنتُ أول لحاق على الأثر ...

وقوله :

وا بؤس منفرد عمن يضاجعه مشرد النوم بين الأهل والمال
يزيد حر حشاه برد مضجعه ويملأ القلب شجواً ربعه الخالي
يبكي ويندب طول الليل أجمعه فلا يقر ولا يهدا على حال

هذه خواطر أملتها عليّ قراءتي لديوان « أنات حائرة » الذي نظمه عزيز أباظة الشاعر لذكرى زوجته . ومن حق ناظمه الكريم — بعد تعزيتنا له — أن يفاخر بأن ديوانه الجديد هو أول ديوان في الشعر العربي يُعمل برمته في رثاء زوجة .

محمد عبد الغني حسن

(١) ديوان أبي تمام لناشريه عبد الفتاح مصطفى وعبد الحميد يونس .

(١) ديوان البارودي الجزء الأول لناشريه علي الجارم وشفيق معروف ص ١٨٩ (٢) ديوان الطغرائي طبع الشام ، ومختارات البارودي